مجلة الحكمة للدراسات الاجتماعية
ISSN : 2353- 0529 EISSN 2600- 643X
المجلد 8 / العدد: 03 (2020)، ص 55 – 72

فلسفة "عروة بن الورد" الاجتماعية

Orwa Bin Al ward's social philosophy

د. ميلود فضة

جامعة زيان عاشور بالجلفة- الجزائر.

تاريخ الاستلام: 2020/12/11 تاريخ القبول: 2020/12/18 تاريخ النشر:2021/02/25

ملخص:

يتحدث هذا المقال عن نظرة الشاعر "عروة بن الورد" للحياة ف ي العصر الجاهلي، ودعوته التي دعا إليها من أجل نصرة ومساعدة الفقراء المستضعفين الذين التفوا حوله، فكان زعيمهم الشعبي، الذي نادى بعدالة اجتماعية. وذلك بدراسة نماذج شعرية له، ونرى كيف استطاع أن يعبّر عن ذلك الواقع تعبيرا صادقا؛ ممّا يعطينا فكرة عن تلك الفترة من تاريخ الإنسان، وكيف استطاع هو، وأولئك الشعراء الصعاليك أن يغيّروا تلك الحالة التي كان عليها الناس آنذاك، وأن يعيشوا أحرارا بلا قيود ولا ضوابط تتحكم فيهم.

كلمات مفتاحية: عروة بن الورد، حياة اجتماعية، شعراء صعاليك، صعلكة، عصر جاهلي.

Abstract:

This article talks about Urwa bin al-wards view of life in the pre-Islamic era, and his calle to which he colled for victory and help for the poor and vulnerable who rallied around him he was their popular leader who called for social justice.

By studying his poetic models, and seeing how he was able to express that reality in a sincere expression, which gives us an idea about that period in human history, and how he and his tramps were

able to change that state that people had at the time, and to live free without restrictions or controls that control including.

Keywords: Orwa bin al ward, Social life, Tramps Poets, the Tramp, Pre - Islamic era.

مقدمة:

من المعلوم أن العصر الجاهلي هو الفترة التي تسبق ظهور الإسلام، وهي فترة ترحال وعدم استقرار، وحروب وتقاتل، وسطو وإغارة، وأخذ بثأر، ومعلوم كذلك أن لكل قبيلة شاعر يذود عنها بشعره؛ فيمدحها ويذكر خصالها، ويحثّها على القتال، وهؤلاء الشعراء منهم مَن انتموا إلى قبيلتهم فسُمّوا قَبَلِيين، ومنهم مَنْ خرجوا عن نظام القبيلة؛ فاتّخذوا من الجبال والوديان والقفار ملجأ، ونظموا شعرا راقيا، عبّروا به عن حالتهم وأحاسيسهم، عن تحرّكاتهم ومغامراتهم، وما يفكّرون به ويأملون، يريدون حياة حرّة، وعيشة رغيدة، يقطعون الطريق من أجل أكل ولباس لا غير، إنهم ينزعون من الأغنياء ليعطوا للفقراء، هؤلاء سمّوا شعراء صعاليك.

و"عروة بن الورد" واحد من أولئك الشعراء الصعاليك، أحاول في هذه الصفحات أن أقف عند أهم مظاهر فلسفته الاجتماعية؛ وبمعنى آخر نظرته للفقر والغنى، وللفوارق الموجودة بين أفراد المجتمع، وللغزو والإغارة والسّلب، ومساهمته في مساعدة الفقراء والمحتاجين والضعفاء...

اتّبعت خطة تتناسب والعنوان؛ بداية من ترجمة للشاعر، ثم ظاهرة الصعلكة لغة واصطلاحا، وبعدها حديث عن العصر الجاهلي والشعراء الصعاليك، وأخيرا إبراز فلسفة عروة الاجتماعية في شعره، وختاما أهم نتائج البحث.

أولا_ ترجمة موجزة لعروة بن الورد:

هو عروة بن الورد بن زيد بن عبد الله بن ناشب بن هُرَّيم بن لُديم بن عوذ بن غالب بن قطيْعة بن عبس.(خليف، د.ت، ص:322) ولد سنة 555م بشبه

الجزيرة العربية (موقع ويكيبيديا، 2020/12/08م). فهو من قبيلة معروفة كما ترى، هي "عبس".

وكان "عروة بن الورد" يسمّى: عروة الصعاليك لأنه كان يجمع الفقراء في حظيرة فيرزقهم مما يغنمه (ابن منظور، د.ت، مادة"صعلك"). وكان كريم الخلق عفيفا صادقا وفيا بالعهود (فروخ، 1981، 212/1). ومن أشرف الصعاليك، يعيش لغيره أكثر مما يعيش لنفسه، وصعلكته عن حاجة وفقر (الفاخوري، 1986، ص:173). وُضِع "عروة" منذ نشأته الأولى بين شقي الرحى، فأبوه تتشاءم منه قبيلته، وأمه من قبيلة أقل شرفا (خليف، د.ت، ص:323). وسبب تشاؤم قبيلته من أبيه هو أنه أوقع الحرب بينها وبين "فزَارة" بمراهنته حذيفة (خليف، د.ت، ص:322).

وتذكر المصادر أن أباه كان يفضّل أخاه الأكبر عليه ((ومعنى هذا أن عروة تفتّحت عيناه في الحياة على صورة مختلفة التوازن من صورها: صورة الأخ الأكبر الذي يؤثره أبوه مع غناء عنه، وإلى جانبها صورة الأخ الأصغر الذي يهمله أبوه مع ضعفه وحاجته إليه، أليست هذه الصورة هي التي شاهدها "عروة" بعد ذلك في المجتمع الذي يعيش فيه في مجال أوسع: الأغنياء الذين تؤثرهم الحياة مع غناهم، وإلى جانبهم الفقراء الذين تحرمهم الحياة من كل شيء مع شدة حاجتهم وضعفهم؟ وهكذا بدأت براعم فلسفة عروة الاجتماعية والاقتصادية في الظهور في هذه السن المبكرة)) (خليف، د.ت، ص:323).

كان عروة بن الورد فارسا من فرسان الجاهلية المعدودين، كما عرفه الأصفهاني صاحب الأغاني في حديثه عنه، وصعلوكا من صعاليكها المعدودين المقدمين الأجواد، ولقب بعروة الصعاليك... (ابن الورد، 1998، ص:10). إن إنسانية عروة وجوده تتمثل أفضل تمثيل في طريقة حياته ومعاملته للصعاليك،

الذين كثيرا ما كانوا يتدللون عليه، فيتحملهم لئلا يفسد صنيعه معهم، ويصبر عليهم أعظم الصبر، ويكظم غيظه، ويعفو عنهم أعظم العفو (ابن الورد، 1998، ص:10).

توفي مقتولا في إحدى تلك الغارات التي كان يقوم بها لإحضار الطعام للفقراء، وكان هذا قبل الإسلام بـ26 عاما في سنة 594م، وبعض المصادر قالت 607م (https://www.qssas.com، 2018/06/03م). أو: 15ق.هـ/607م (موقع ويكيبيديا، 2020/12/08م).

هذا باختصار عن حياته، وجوانب أخرى منها، وخاصة التي تتعلّق بشخصيته ونفسيته، وعلاقاته الاجتماعية، نكتشفها من خلال نماذج من شعره، في المحور الأخير من هذا المقال.

ثانيا_ الصعلكة لغة واصطلاحا:

أ_ الصعلكة لغة:

جاء في لسان العرب: ((الصُّعْلوك: الفقير الذي لا مال له، زاد الأزهري: ولا اعتمادَ. وقد تَصَعْلَكَ الرّجلُ إذا كان كذلك، قال "حاتم طيّئ":

غَنِينَا زماناً بالتَّصَعْلك والغِنى فكُلاًّ سقاناهُ، بكأْسيهما الدَّهْرُ

فما زادنا بَغْياً على ذي قرابة غِنَانا ولا أزرى بأحسابنا الفقـرُ

أي عشنا زمانا.

وتصعلكت الإبل: خرجت أوبارُها وانجردتْ وطَرَحتْها. ورجلٌ مُصَعْلكُ الرأس: مُدوَّرُهُ... والتصعلك: الفقر... وكان "عروة بن الورد" يسمّى: عروة الصّعاليك لأنه كان يجمع الفقراء في حظيرة فيرزقهم ممّا يغنمه)) (ابن منظور، د.ت، مادة"صعلك").

((فالصعلكة إذن _ في مفهومها اللغوي _ الفقر الذي يجرد الإنسان من ماله، ويظهره ضامرا هزيلا بين أولئك الأغنياء المترفين الذين أتخمهم المال وسمنهم)) (خليف، د.ت، ص:22).

ولكن إذا نظرنا إلى عبارة الأزهري: "ولا اعتماد"، نجد أن المعنى اللغوي السابق لا يعبّر تعبيرا كاملا عن كلمة "صعلكة"؛ وعلى هذا نستطيع أن نقول إن الصعلوك في اللغة هو الفقير الذي لا مال له يستعين به على أعباء الحياة، ولا اعتماد له على شيء أو أحد يتكئ عليه أو يتّكل عليه ليشق طريقه فيها، ويعينه عليها، حتى يسلك سبيله كما يسلكه سائر البشر الذين يتعاونون على الحياة، ويواجهون مشكلاتها يدا واحدة (خليف، د.ت، ص: 23).

ب_ الصعلكة اصطلاحا:

الصعلكة ليست طارئة على الحياة الاجتماعية، وإنما ولدت بشكل طبيعي لتعبر عن التناقض الكامن في المجتمع العربي، وتنبئ عن تردي الواقع، اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا، إذ انقسم المجتمع على طبقات اجتماعية فضلا عن انقسامه على طبقتين اقتصاديتين؛ طبقة تملك الأموال وهي المسيطرة على مظاهر الحياة بكل أنواعها وأشكالها، وأخرى فقيرة معدمة تعيش على هامش الحياة، كما أسهم البناء الاجتماعي في تعميق الفوارق الحادة في طبقات المجتمع مما دفع إلى ظهور الصعلكة بوضعها ظاهرة اجتماعية جديرة بالدرس والتأمل (لفتة، 2010، ص:17).

كما تولدت هذه الظاهرة من عدم إمكان تعايش الفرد في إطار القبائل العربية بأنظمتها وقوانينها، لذا تميز شعر الصعاليك بالتعبير عن الأنا... (لفتة، 2010، ص:17).

إن مادة "صعلك" تدور في دائرتين: إحداهما "الدائرة اللغوية" التي تدل فيها على معنى الفقر، وما يتصل به من حرمان في الحياة، وضيق في أسباب العيش، والأخرى نستطيع أن نطلق عليها "الدائرة الاجتماعية"، وفيها نرى المادة تتطور لتدلّ على صفات خاصة تتصل بالوضع الاجتماعي للفرد في مجتمعه، وبالأسلوب الذي يسلكه في الحياة لتغيير هذا الوضع (خليف، د.ت، ص:26، 27).

ثالثا_ الصعاليك في العصر الجاهلي:

أ_ الصعاليك:

الصعاليك اسم يطلق على جماعة من العرب في عصر ما قبل الإسلام، عاشوا وأطلقوا حركتهم في الجزيرة العربية، وينتمون لقبائل مختلفة. كانوا لا يعترفون بسلطة القبيلة وواجباتها، فطُردوا من قبائلهم، ومعظم أفراد هذه الجماعة من الشعراء المجيدين وقصائدهم تعدّ من عيون الشعر العربي (موقع ويكيبيديا، 2020/12/06م). ومن أبرزهم: "عروة بن الورد"، و"تأبّط شرّا"، و"الشنفرى".

ومصطلح "صعلوك" "صعاليك" يتردد بكثرة في أخبار العصر الجاهلي قبل الإسلام في الجزيرة العربية، وتقابلك كثيرا على ألسنة شعرائه ورواة أخباره. لكن في الكثرة الغالبة يدور المصطلح حول مجموعة من العرب أفراد وجماعات انقطعوا للإغارة وقطع الطرق.

ومن هؤلاء الخُلعاء طائفة الصعاليك المشهورة، وكانوا يمضون على وجوههم في الصحراء، فيتخذون النّهب وقطع الطريق سيرتهم ودأبهم، على نحو ما نعرف عن تأبّط شَرًّا والسُّلَيْك بن السلكة والشَّنْفَرى، على أن منهم من كان يظل في قبيلته لفضل فيه مثل عروة بن الورد، وكان كريما فياضا، وأُثر عنه أنه كان يجمع إلى خيمته فقراء قبيلته عَبْس ومعوزيها ومرضاها، متخذا لهم حظائر يأوون فيها، قاسما بينه وبينهم مغانمه (ضيف، د.ت، 67).

وقد ميّز "شوقي ضيف" في الصعاليك ثلاث مجموعات: مجموعة من الخُلَعاء الشذاذ الذين خلعتهم قبائلهم، ومجموعة من أبناء الحبشيات السود، ممن نبذهم آباؤهم ولم يلحقوهم بهم لعار ولادتهم مثل "السُّلَيْك بن السُّلَكة"، و"تأبّط شرًّا"، و"الشَّنْفَرى"، وكانوا يَشرْكون أمهاتهم في سوادهم فسموا هم وأضرابهم باسم أغربة العرب، ومجموعة ثالثة لم تكن من الخُلَعاء ولا أبناء الإماء الحبشيات، غير أنها احترفت الصعلكة، وحينئذ قد تكون أفرادا مثل عُروة بن الورد العبسي، وقد تكون قبيلة برمتها مثل قبيلتي "هُذَيل" التي كانت تنزل بالقرب من مكة، وقبيلة "وفَهْم" التي كانت تنزل بالقرب من الطائف. وتترد في أشعارهم جميعا صيحات الفقر والجوع، كما تموج أنفسهم بثورة عارمة على الأغنياء والأشحّاء، ويمتازون بالشجاعة والصبر عند البأس وشدة المراس والمضاء وسرعة العَدْو... (ضيف، د.ت، 375).

ب_ العصر الجاهلي:

قد يتبادر إلى الأذهان أن العصر الجاهلي يشمل كل ما سبق الإسلام من حقب وأزمنة، فهو يدل على الأطوار التاريخية للجزيرة العربية في عصورها القديمة قبل الميلاد وبعده. ولكن من يبحثون في الأدب الجاهلي لا يتسعون في الزمن به هذا الاتساع، إذ يتغلغلون به إلى ما وراء قرن ونصف من البعثة النبوية، بل يكتفون بهذه الحقبة الزمنية، وهي الحقبة التي تكاملت للغة العربية منذ أوائلها خصائصُها، والتي جاءنا عنها الشعر الجاهلي... (ضيف، د.ت، 38).

وينبغي أن نعرف أن كلمة "الجاهلية" التي أُطلقت على هذا العصر ليست مشتقة من الجهل الذي هو ضد العلم ونقيضه، إنما هي مشتقة من الجهل بمعنى السفه والغضب والنزق، فهي تقابل كلمة الإسلام التي تدل على الخضوع والطاعة لله جلّ وعز وما يطوى فيها من سلوك خلقي كريم. ودارت الكلمة في الذكر الحكيم

والحديث النبوي والشعر الجاهلي بهذا المعنى من الحميَّة والطيش والغضب... وقد أخذت تطلق على العصر القريب من الإسلام أو بعبارة أدق على العصر السابق له مباشرة وكل ما كان فيه من وثنية وأخلاق قوامها الحمية والأخذ بالثأر واقتراف ما حرَّمه الدين الحنيف من موبقات.(ضيف، د.ت، 39).

وكانت القبيلة في العصر الجاهلي تتألف من ثلاث طبقات: أبناؤها وهم الذين يربط بينهم الدم والنسب...والعبيد، وهم رقيقها المجلوب من البلاد الأجنبية المجاورة وخاصة الحبشة، والموالي، وهم عُتَقاؤها، ويدخل فيهم الخلعاء الذين خلعتهم قبائلهم ونفتهم عنها لكثرة جرائرهم وجناياتهم، وكانوا يعلنون هذا الخلع على رؤوس الأشهاد في أسواقهم ومجامعهم، وقد يستجير الخليع بقبيلة أخرى فتجيره، وبذلك يصبح له حق التوطن في القبيلة الجديدة، كما يصبح من واجبه الوفاء بجميع حقوقها، مثله مثل أبنائها (ضيف، د.ت، 67). ومن هؤلاء الخُلعاء طائفة الصعاليك المشهورة، كما مرّ بنا عند أبي الفرج الأصفهاني سابقا.

رابعا_ فلسفة "عروة بن الورد" الاجتماعية من خلال شعره:

"عروة بن الرود" شاعر انتمى لقبيلته، بخلاف الشعراء الآخرين الذين خرجوا عن قبائلهم، لكنه احترف الصعلكة؛ لما رآه من عدم التوازن في مجتمعه، ورفضه للواقع وما فيه، مكرِّسا حياته لأولئك المستضعفين والجوعى، يسعى للغنى ليس لذاته، ولكن ليوزّع ما يجمعه على الفقراء والمساكين، لقد كانت نظرته لمشكلة الفقر والغنى على عكس ما يفهمها الناس، حاثاً في هذا المجال على السعي في طلب الرزق وعدم الاتكال.

ويعتبر "عروة بن الورد" بين الشعراء العرب، أحب الشخصيات وأكثرها جاذبية، ذاك لما اشتمل عليه شعره هذا الشاعر الجاهلي الفطري من آداب إنسانية رقيقة، وأخلاق الفارس النبيل الكريمة المعطاءة، مع جودٍ بعيد عن التكلف والافتعال، وروح تعطي المحتاج الفقير تتجلى في كل ما كان يقدمه للناس

من إحسان ويبذله من عطف وكرم تجاه الصعاليك والضعفاء والمساكين والمرضى؛ وهذا ما جعل الخليفة الأموي "معاوية بن أبي سفيان" يقول: "لو كان لعروة ولدٌ لأحببت أن أتزوج إليهم". عروة الذي حمل الخليفة "عبد الملك بن مروان" على أن يقول: "ما يسرني أن أحدٌ من العرب ممّن ولدني لم يلدني؛ إلا عروة بن الورد لقوله:

إني امرؤٌ عافي إنائي شركةٌ وأنت امرؤٌ عافي إنائك واحدُ "

(ابن الورد، 1998، ص:09).

وتميّز شعر "عروة" بالوضوح والسهولة، فقد كان دقيق الألفاظ، وتحمل كلماته موسيقى صوتية عندما تقرأه، وكان يسطر في شعره أروع القيم، فيظهر في شعره روح التضحية في سبيل إسعاد الفقراء والمظلومين حيث يقول(https://www.qssas.com ،2018/06/03م):

إنّي امرؤٌ عَافِي إنائي شِرْكَــةٌ وأنت امرؤ عافي إنائِك واحـــــدُ

أتهزأُ منّي أنْ سمنتَ وأن ترى بجسميَ شحوبَ الحقِّ، والحقُّ جاهدُ

أُقسِّمُ جسمي في جسومٍ كثيرةٍ وأَحْسُو قَراحَ الماءِ، والماءُ بــاردُ

وعروة يعبّر عن معنى إنساني رفيع، إذ تعرَّض له بعض أصحابه يعيبه بأنه مُضْنًى هزيل شاحب اللون، فقال له: إنني يشكرني كثيرون من العفاة والسائلين ذوي الحاجة في إنائي أو طعامي، أما أنت فلا يشكرك أحد، ولذلك سمنت أما أنا فأصبحت ضامرا نحيلا، وما شحوب وجهي إلا أثر من آثار نهوضي بحقوق هؤلاء المحتاجين والمعوزين، فلست أنا الخليق بالهزء والسخرية، إنما الخليق بذلك السمين والبَطِين. وما لبث أن قال: إنه يقسم طعامه بينه وبين الفقراء، أو بعبارة أدق يقسم جسمه في جسومهم، بل كثيرا ما يؤثرهم على نفسه بكل طعامه مع جوعه ومسغبته مكتفيا بشرب الماء البارد، على حين يعصف الشتاء بزمهريره.

والذي لا ريب فيه أنه طمح إلى مثل نبيل في البِرّ والإيثار ودفع غوائل البؤس والشقاء عن البؤساء والضعفاء (ضيف، د.ت، ص:384).

لقد سطر "عروة بن الورد" العديد من القيم بأشعاره الرنانة، والتي تؤسس لإرساء العدالة الاجتماعية بين الناس، وكانت تلك طريقته في البادية في البيئة القاحلة التي يعيش بها، لقد استطاع هذا الشاعر العبسي أن يترك اسمه خالدا في سجلّ الشعر العربي، فهو شاعر ورجل فريد بما كان يقدمه ويفعله في هذا المجتمع الجاهلي، والذي يحتكم فقط لمنطق القوة، لكنه استطاع أن يسطّر به قيما؛ كالعطاء والإيثار من خلال أشعاره، حيث قال(https://www.qssas.com، 2018/06/03م):

هَلاَّ سألـــتَ بني عَيْلانَ كلهـــم عند السنين إذا ما هبّت الريحُ

قد حان قدح عيال الحي إذ شبعوا وآخر لذوي الجيران ممنــوحُ

ولقّب بعروة الصعاليك؛ كان يجمع صعاليك العرب ويقوم بأمرهم، فيرعى أحوالهم، إذا أخفقوا في غزواتهم ولم يكن لهم معاشٌ ومغزى _ كما مرّ بنا في لسان العرب سابقا_، وقيل لقّب بذلك لقوله(ابن الورد، 1998، ص:10):

لحى الله صعلوكًا، إذا جنَّ ليلُه مصافي المشاسن آلفا كل مجزرِ

يعد الغنى، من دهره، كل ليلة أصابَ قراها من صديقٍ ميســرِ

ولله صعلوكٌ، صفيحة وجهــهِ كضوء شهابِ القابس المتنــورِ

ويوضح "شوقي ضيف" فكرة عند "عروة" _عرضها على زوجته_؛ وهي مقارنته بين نموذجين من الصعاليك؛ صعلوك خامل ضعيف، وآخر وجهه مشرق بأعماله المجيدة، فيقول "شوقي ضيف": ((أما الصورة الأولى ففيها يتراءى الصعلوك خاملا، حسبه أن ينال أكلة من فتات مائدة، لا يهمه أهله ولا عياله ولا قومهم،

يقول:

لَحَى اللهُ صُعْلُوكا إذا جنَّ ليله مُصَافى المُشاشِ آلِفاً طلَّ مَجْزَرِ
يَعُدُّ الغِنى من دهره كلَّ ليلةٍ أَصاب قِراها من صديق ميسَّرِ
ينامُ عِشاءً ثم يُصبح قاعداً يَحُتُّ الحصا عن جنْبِه المتعفِّرِ
يُعين نساء الحيِّ ما يستعنَّه فيُضْحى طليحاً كالبعير المحسَّرِ

وواضح أنه ينعته بأنه ضعيف الهمة فحسبه لقمة تشبعه، ... وإنه لينام ملء جفونه فليس هناك ما يشغله، وحتى هو في النهار ليس هناك ما يعمله سوى خدمة النساء، فهو ذليل مهين يعيش عالة على مجتمعه، ومثل هذا الصعلوك جدير بكل ملامة، لأنه يحيا حياة وضيعة. أما الصعلوك الآخر الشريف فهو جدير بكل ثناء وتشجيع من الزوجة وغير الزوجة، يقول في وصفه:

ولله صعلوكٌ صحيفةُ وجهه كَضَوْء شِهابِ القابسِ المتنوِّرِ
مُطِلًّا على أعدائه يَزْجُرونه بساحتهم زَجْرَ المَنِيحِ المشهَّرِ
وإن بَعُدُوا لا يأمنون اقترابَهُ تشوُّف أَهلِ الغائبِ المتنظَّـرِ
فذلك إن يَلْقَ المنيَّةَ يلْقَها حَميدًا، وإن يَسْتَغْنِ يوماً فأَجْدِرِ

فهذا هو الصعلوك الذي يعجب به عروة، صعلوك وجهه مشرق بأعماله المجيدة، لا يزال يطل على أعدائه ويشرف عليهم، فيظفر منهم بكل ما يريد، على الرغم من صياحهم به وزجرهم له، وهم مهما بعدوا لا يأمنون غزوه... ويقول إن مثل هذا الصعلوك المغامر الجريء إن يمت تظلّ ذكراه خالدة لمحامده ومناقبه)) (ضيف، د.ت، ص: 385، 386، 387).

ويتحدث "عروة" عن مساعدته للفقراء والمحتاجين والضعفاء، وأن فراشه وبيته لهم، في بيتين من ديوانه، بعنوان: "فراش الضعيف"، فيقول(ابن الورد، 1998، ص: 83):

فراشي فراشُ الضعيف والبيت بيتُه ولم يلهني عنه غزالٌ مقنــعُ
أحدثـــــه، إنّ الحديثَ من القـــرى وتعلمُ نفسي أنه سوف يهجعُ

ولا يكتفي "عروة" بهذا؛ بل إن ((هذا الدور الذي يؤدَّى لا يمنعه عنه أي مانع أو أي شاغل فلا ينشغل بامرأة حسناء مثلا. والغزال المقنع: المرأة اللابسة القناع، أو ما تغطي به شعرها. والقرى: أي الكرم وتقديم واجب الضيافة على الوجه الأكمل للضيف. والحديث الذي يطمئن ويريح نوع من الكرم. ويهجع: ينام ويستريح بعد أن آمنه وأطعمه من الجوع والخوف...)) (ابن الورد، 1998، ص: 83).

ويحدثنا "يوسف خليف" عن فلسفة "عروة"، ومثّل لذلك ببيتين من ديوانه، قائلا: ((وأساس فلسفة "عروة" أن "الغزو والإغارة للسلب والنهب" السبيل الوحيد للغنى لمن هو في مثل حالته:

ومن يكُ مثلي ذا عيال ومُقْتِـــرًا من المال يطرحْ نفسه كلَّ مَطْرِحِ
وما طالبُ الحاجات من كل وجهةٍ من الناس، إلا من أَجدَّ وشمَّــرا))

(خليف، د.ت، ص: 326)

وذلك لأن "عروة"((افتقد... النموذج الفاضل للمجتمع، ولهذا تمرّد على هذا المجتمع، وثار على منطقه وما فيه من مفارقة، وعروة حريص على أن يكشف عن ظروفه الخاصة التي تدفعه إلى التصعلك ...)) (ابن الورد، 1998، ص: 59).

ولكن هناك مكامن وراء ذلك السلب والنهب؛ ((فالغزو والغارة والسلب والنهب ليست عندهم وسائل للغنى وجمع المال فحسب، ولكنها أيضا وسائل للبذل والعطاء، واكتساب المحامد، والتشبه بالسادة الأغنياء في الكرم والجود...)) (خليف، د.ت، 39).

يقول "يوسف خليف" متحدثا عن عروة أنه ((تكثر في شعره أحاديث فقره، وما يعانيه من حرمان، وما يتكبّده في سبيل الغنى من جهد ومشقة، وما يشعر به من ثقل التبعة التي يتحملها إزاء أهله، وإزاء أصحابه الصعاليك أيضا...)) (خليف،

د.ت، 29)، وضرب لذلك ثلاث أبيات من قصائد مختلفة كنموذج، من بينها البيت الأول الآتي، ولكنّي فضّلت، هنا، أن أمثّل لذلك، بأبيات أخرى من ديوانه، من ذلك قوله في قصيدة بعنوان: "دعيني للغنى"(ابن الورد، 1998، ص: 79):

دعيني للغنى أسعى، فإنـي رأيتُ الناسَ شرُّهم الفقيـرُ
وأبعدُهم وأهونُهم عليهـم وإن أمسى له حسبٌ وخِيرُ
ويقصيه الندي، وتزدريـه حليلتُه، وينهره الصغيـرُ
ويُلقى ذو الغِنى، وله جلالٌ، يكاد فؤاد صاحبه يطيـرُ
قليلٌ ذنبه، والذنب جـمٌ ولكـن للغنى ربٌّ غفـورُ

ألا تلاحظ أن هذه الأبيات تعبّر عن واقعنا اليوم؛ تفضيل الغني على الفقير، وتقديمه في مآدب الطعام والجماعات، بينما الفقير مُؤَخَّر في جميع الحالات، حتى في إلقاء التحية، والحديث معه والسّمر...فـ((هكذا يسجّل أبو الصعاليك فلسفته في هذه المشكلة الاجتماعية الخطرة، مشكلة الفقر والغنى، في هذا الأسلوب الممتاز الذي يستمد امتيازه من عنصرين أساسيين هما السخرية والبساطة: السخرية من ذلك المجتمع العجيب الذي يحتقر الفقير لا لشيء إلا لأنه فقير، ويقدّر الغني لا لشيء إلا لأنه غني، والذي لا يهتم بغير المظاهر المادية، أما جوهر النفس الكامن خلف هذه المظاهر فأمر وراء اهتمامه، ثم البساطة التي نلمسها في عرض الشاعر لمعانيه ذلك العرض السهل الذي لا يقبل معارضة، أو يثير جدلا، والذي ينفذ إلى النفس من أقرب السبل...)) (خليف، د.ت، 328، 329).

وتقول محققة ديوانه "أسماء أبو بكر محمد" في نفس السياق:((ولكن عروة وجد من الصعب أن يغير من الواقع ومن نظرة المجتمع للغنى والفقر، ووجد لزاما عليه أن يطلب الغِنى حتى يصبح واحدا من السادة الحقيقيين في إطار الرؤية المستقبلية... والنموذج يكشف عن الواقع وما فيه من مفارقة، ويكشف عن

رفض الشاعر لهذا الواقع ومعاناته منه لما فيه من قسوة وبعد عن الجادة، ولهذا يقدم عروة بن الورد خلاصة تجربته من أسلوب شرط: قائلا:

إذا المرء لم يبعث سواها ولم يرح عليه ولم يعطف عليه أقاربه

فالموت خير للفتى من حياتــه فقيرا ومن مولى تدب عقاربه

فالمرء إذا لم يكن مالكا لإبلٍ وماشية، وإذا لم تعطف عليه أقاربه، فإن الموت خير له من الحياة فقيرا لا يلقى من ذويه سوى الضن والأذى. إن القبيلة قد تخلت عن مسؤوليتها نحو الشاعر، ولم يلمس فيها ما يسمى بالتكافل الاجتماعي، فليس فيها من يتحمل عن ذوي قرباه، لقد بخلوا بخيرهم، فما كان أمامه إلا أن يستغني عنهم...)) (ابن الورد، 1998، ص: 59).

وأستشهد بأبيات أُخر له، في نفس المعنى السابق، في قصيدته بعنوان: "قالت تماضر"(ابن الورد، 1998، ص: 54):

قالت تُماضرُ، إذ رأت مالي خوى وجفا الأقاربُ، فالفؤادُ قريحُ

مالي رأيتُــكَ في النّدى منكَّســاً وصباً، كأنّكَ في الندى نطيحُ؟

خاطرْ بنفسك كي تصيبَ غنيمةً إن القُعودَ مع العيالِ قبيــحُ

المالُ فيـــــه مهابــةٌ وتجلـــةٌ والفقرُ فيه مذلّةٌ وفضـــوحُ

يخبرنا "عروة" أنه لما رأتْ "تماضر" ماله زال، وابتعد عنه الأقارب، قالت له لماذا أنت منكّس وقاعد كالنطيح، وقبحٌ قعودك مع العيال، والفقر، كما هو معلوم، فيه مذلّة وفضيحة، والمال فيه مهابة وتجلّة، والحل، في نظرها، هو خروجه والمخاطرة بنفسه من أجل نيل الغنائم؛ حتى يخرجا من هذا الوضع المزري. ((ويتضح من هذه الأبيات أثر المرأة المباشر في تمرد الجاهلي على واقعه، فالمرأة تواجه هذا الزوج بتلك الحقيقة المرة...)) (ابن الورد، 1998، ص: 54).

ويقول في قصيدة أخرى بعنوان "إذا المرء لم يطلب معاشا"، وفيها حثٌّ على السعي في الأرض، وترك الاتّكال، وطلب الحاجة أو الرزق يأتي بالسعي والتشمير

والجد، وأرض الله واسعة وفيها من الرزق ما يكفي، وإذا مات الإنسان كادحا لطلب الرزق يكن له حمد وذكر بعد مماته (ابن الورد، 1998، ص: 77):

إذا المرءُ لم يطلبْ معاشاً لنفسه شكا الفقرَ، أو لام الصديق، فأكثرا
وصارَ على الأذنين كلاًّ وأوشكت صِلاتُ ذوي القربَى له أن تنكرا
وما طالبُ الحاجات من كل وجهةٍ من الناس، إلاّ من أجدَّ وشمّرا
فسر في بلاد الله، والتمس الغنى تَعِش ذا يسارٍ، أو تموت فتعذرا

إن ((هذه المقطوعة تحمل في طيّاتها فلسفة عروة في الحياة، وضرورة السير في بلاد الله، خلق الله، من أجل الثراء والغنى، بدلا من شكوى الفقر، أو الطلب من الذين لا يثمر فيهم المعروف أو الخير)) (ابن الورد، 1998، ص: 77).

ويخبرنا شاعرنا "عروة" كيف يرفع من ساداته، ((والسيد هنا هو "الربيع بن زياد العبسي"، أحد سادات قبيلة بني عبس)) (ابن الورد، 1998، ص: 84). وعن علاقته بزوجته إن هي أمرته بالعقوق، فيقول (ابن الورد، 1998، ص: 84):

لكل أُناس سيّدٌ يعرفونه وسيّدُنا، حتى المماتِ، ربيعُ
إذا أمرتني بالعقوق حليلتي فلم أعصِها، إني إذاً لمضيعُ

وأحب أن أنهي هذا المقال بقول جميل لـ"شوقي ضيف" ملخّصا فكرة التضامن الاجتماعي التي كافح من أجلها "عروة":((والحق أن عروة كان صعلوكا شريفا، وأنه استطاع أن يرفع الصعلكة، وأن يجعلها ضربا من ضروب السيادة والمروءة، إذ كان يستشعر في قوة فكرة التضامن الاجتماعي وما يطوى فيها من إيثار وبِرٍّ بالفقراء، فهو لا يسعى لنفسه فحسب، وإنما يسعى قبل كل شيء للمعوزين من عشيرته حتى يدفع عنهم كل ما يجدون من بؤس وشقاء)) (ضيف، د.ت، ص:387.).

خاتمة:

من خلال هذه الجولة السريعة في شعر "عروة"، نصل إلى ذكر مجموعة من العناصر؛ هي بمثابة خلاصة لما ذُكر في هذا المقال، نجملها فيما يلي:

_ الصعلوك هو الفقير الذي لا مال له، ولا اعتماد له على شيء.

_ الصعاليك اسم يطلق على جماعة من العرب في عصر ما قبل الإسلام تمرّدوا على قبائلهم.

_ العصر الجاهلي يمتدّ إلى مئة وخمسين سنة قبل بعثة النبي _صلى الله عليه وسلم_.

_ كلمة "الجاهلية" مشتقة من الجهل بمعنى السفه والغضب، وليست مشتقة من الجهل الذي هو ضد العلم، وهي تقابل كلمة الإسلام.

_ تُميّز المصادر ثلاث مجموعات من الصعاليك في العصر الجاهلي، هم: الخُلعاء الشذاذ، وثانيا مجموعة من أبناء الحبشيات السود، ومجموعة ثالثة لم تكن من الخلعاء ولا من أبناء الإماء الحبشيات، لكنها احترفت الصعلكة؛ كعروة بن الورد.

_ تتألف القبيلة في العصر الجاهلي من ثلاث طبقات، هي: أبناؤها، والعبيد، والموالي. ويدخل في الطبقة الأخيرة الخلعاء الذين خلعتهم قبائلهم ونفتهم، ومنهم طائفة الصعاليك.

_ عاش "عروة بن الورد" في مجتمع جاهلي فيه من التناقض، وعدم وجود التكافل الاجتماعي، وخاصة من الأقارب، ما يدعو إلى الخروج عن القبيلة، وبالتالي التصعلك.

_ حمل "عروة بن الورد" على عاتقه مهمة عظيمة وكبيرة؛ وهي مساعدة المحتاجين والفقراء والضعفاء، في صورة إنسانية عظيمة قليلا ما نجدها.

_ دعا "عروة بن الورد" إلى عدالة اجتماعية، أساسها المساواة بين الأغنياء والفقراء، ونبذ الطبقية التي كانت سائدة في العصر الجاهلي.

_ "عروة بن الورد" مثال يُحتذى به في كلّ زمان، في التضحية والشجاعة، والبذل والكرم والعطاء، والإيثار.

_ تمثّل قصة "عروة" ورفاقه الصعاليك، صراع الإنسان ضد الجوع؛ فالمسألة مسألة حياة أو موت.

_ لقد عالج "عروة بن الورد" مشكلة الفقر والغنى تنظيرا وتطبيقا؛ تنظيرا من خلال شعره وما دعا إليه، وما قدمه من حلول، وعمليا من خلال نزوله للميدان وقيامه بعمليات البحث والغزو والسلب والنهب.

قائمة المراجع:

_ خليف، يوسف، (د.ت)، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، دار المعارف، القاهرة.

_ ضيف، شوقي، (د.ت)، تاريخ الأدب الجاهلي(العصر الجاهلي)، دار المعارف، مصر.

_ الفاخوري، حنا، (1986)، تاريخ الأدب العربي، دار الجيل، بيروت. لبنان.

_ فروخ، عمر(1981)، تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت.

_ لفتة، ضياء غني،(2010)، البنية السردية في شعر الصعاليك، دار الحامد للنشر والتوزيع، الأردن.

_ ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، (د.ت)، لسان العرب ، دار المعارف، القاهرة.

_ ابن الورد، عروة، (1998)، ديوانه، دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان.

ب_ المواقع الإلكترونية:

_https//ar.m.wikipedia.org

رباب جودة، (2018/06/03م)، قصة الشاعر عروة بن الورد أمير الصعاليك، https://www.qssas.com.